مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (٦)، العدد (٢)، ص ص ٥٣٥-٥٧٣، (رجب ١٤٣٤هـ/مايو ٢٠١٣م)

حسن التخلص في سورة النور

د. زكريا علي محمود الخضر
أستاذ مساعد بقسم أصول الدين
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية /جامعة اليرموك

قدم للنشر في ١٤٣٣/٢/٢٦هـ وقبل للنشر في ١٤٣٢/٧/٥هـ

ملخص البحث. يعد حسن التخلص أحد الفنون البلاغية التي حفل بها نظم القرآن الكريم، وقد عمل الباحث على بيان العلاقة بين حسن التخلص وعلم المناسبات، وبيان كونه أحد الأوجه البلاغية في إعجاز القرآن الكريم.

وقد أظهر الباحث عناية المفسرين بحسن التخلص في تفاسيرهم، وركز على أهميته في بيان الترابط بين الآيات والموضوعات القرآنية، كما عرض البحث لدراسة تطبيقية لحسن التخلص في سورة النور متعددة الموضوعات والمقاصد، فكشف الباحث عن أنواع العلاقات في حسن التخلص، وأثر ذلك في بيان أسرار البلاغة والإعجاز في هذه السورة الكريمة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن جمال نظم القرآن الكريم متعدد الصور، ومتنوع الأفانين مما يشهد لإعجازه الخالد وبلاغته التي لاتجاريها بلاغة على الإطلاق.

وإن من صور هذا الجمال في النظم حسن التخلص والانتقال من موضوع الى آخر، ومن آية الى أخرى دون أن يشعر القارئ بفجوة في هذا الانتقال؛ بل يشعر بما يدعوه للإمعان في روعة هذا الانتقال فيتذوق رونق البلاغة، وتهش لروعة هذا التخلص نفسه، فيستشعر الرغبة الملحة في متابعة القرآن أو الاستماع لآياته.

وفي هذا البحث رغبت في أن أعرض لهذا الموضوع تأصيلاً وتطبيقاً؛ وأن أفصل في بيان العلاقة بين حسن التخلص وعلم المناسبات، وأبين مدخل حسن التخلص في الإعجاز مستنتجًا العلاقات والروابط في حسن التخلص بين الموضوعات القرآنية، ثم أقدم الدراسة التطبيقية لحسن التخلص والانتقال في سورة النور التي حفلت بالموضوعات الأخلاقية والأحكام الشرعية والعقدية؛ إذ هي تشكل منظومة قيم اجتماعية تناسب الفرد والمجتمع، وقد تضمنت أحكامًا شرعية متنوعة تتعلق بأحكام القذف والزنا والزواج وغض البصر، وآداب الدخول على البيوت وأحكامها، وقضايا تتعلق بالأسرة والمحارم، كما احتوت أصولاً عقدية ودلائل القدرة الإلهية، وجوانب الهداية الربانية للخلق، وتعرضت لمواقف المنافقين وأصولهم، ومواقف المؤمنين ووعد الله الصادق لهم وما إلى ذلك. فآثرت البحث في دقة القرآن وروعة انتقاله بين هذه الموضوعات المتنوعة وكيف ظهرت كأنها موضوع واحد متفق متسق في جميع جوانبه،

وكيف أن الانتقال والتخلص في هذه الموضوعات لم يشعر القارئ بفجوة فيه أو تغير مخل بالنظم، مبيناً أسرار البلاغة لهذا الانتقال في السورة.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون على النحو الآتي:

المقدمة.

المبحث الأول: تعريف حسن التخلص وبيان العلاقة بينه وبين علم المناسبات، وفيه خمسة مطالب هي:

المطلب الأول: تعريف حسن التخلص عند البلغاء.

المطلب الثاني: تعريف حسن التخلص عند علماء علوم القرآن.

المطلب الثالث: بيان العلاقة بين حسن التخلص وعلم المناسبات.

المطلب الرابع: أهمية حسن التخلص وبيان كونه وجها من أوجه الإعجاز البياني.

المطلب الخامس: بيان اهتمام المفسرين بحسن التخلص في القرآن.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية لحسن التخلص في سورة النور، وفيه عشرة مطالب، هي:

المطلب الأول: الانتقال من التأصيل إلى التفصيل.

المطلب الثاني: الانتقال من الإجمال إلى التفصيل.

المطلب الثالثً: الانتقال من حكم إلى حكم آخر.

(حسن التخلص من حد الزنا إلى حد القذف).

المطلب الرابع: الانتقال من الحكم إلى النموذج

(حسن التخلص من حد القذف واللعان إلى حادثة الإفك).

المطلب الخامس: الانتقال من الحكم إلى الوصف.

(التخلص من حادثة الإفك إلى بيان صفة المنافقين).

المطلب السادس: الانتقال من الحكم إلى السبب.

المطلب السابع: الانتقال من الأحكام إلى وصفه لذاته سبحانه وضرب المثل.

المطلب الثامن: الانتقال من الحكم العقدي إلى الأثر العملي المترتب عليه.

المطلب التاسع: الانتقال من وصف المتقين إلى جزائهم.

المطلب العاشر: الانتقال من ذكر المتقين إلى ذكر الكافرين.

آمل أن أكون قد وفقت في هذا البحث سائلاً الله -تعالى- السداد في القول والعمل، إنه ولي التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: تعريف حسن التخلص وبيان العلاقة بينه وبين علم المناسبات

المطلب الأول: تعريف حسن التخلص عند البلغاء

ورد التعبير بمصطلح حسن التخلص عند علماء البلاغة المتأخرين، ومقصودهم منه: الانتقال بخِفة من فن إلى آخر من فنون الكلام، بحيث لا يشعر السامع بفجوة خلال هذا الانتقال، وهو من فنون البلاغة العربية، وقد جرى على استعماله الشعراء في العصر الجاهلي، لكنه لم يكن معروفاً بهذه التسمية.

وأول من استعمله ابن المعتز وسماه "حسن الخروج من معنى إلى معنى"[١] وعده من محاسن الكلام، وممن ذكره كذلك أبو هلال العسكري وسماه"الخروج من النسيب إلى المدح وغيره"[٢]، وذكر له العديد من الشواهد الشعرية.

---

(١) ابن المعتز، البديع،ص٦٠.

(٢) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٤٥٢.

وقد ذكره ابن رشيق وسماه"الخروج"و"التخلص"، وقال: "وأما الخروج: فهو عندهم شبيه بالاستطراد، وليس به؛ لأن الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل، ثم تتمادى فيما خرجت إليه"(٣)، ثم قال: "ومن الناس من يسمي الخروج تخلصاً وتوسلاً"(٤).

وقد عرفه عبد القادر البغدادي بأنه استطراد من معنًى إلى آخر مع وجودالانسجام بين تلك المعاني، حيث قال: "هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر، يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاساً رشيقاً دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني؛ لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد"(٥).

ومراد البغدادي من الاستطراد: الانتقال، إما للتوضيح، أو لإزالة الإبهام، وما إلى ذلك مما يستدعيه المقام ويتطلبه حسن الكلام.

وقد عُني به القزويني حيث يقول: (الانتقال مما شبب الكلام به من تشبيب أو غيره إلى المقصود، مع رعاية الملاءمة بينهما؛ لأن السامع يكون مترقباً للانتقال من التشبيب إلى المقصود كيف يكون، فإذا كان حسناً متلائم الطرفين حرك من نشاط السامع، وأعان على إصغائه إلى ما بعده، وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس)(٦)

(ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلص كقول القائل بعد حمد الله: أما بعد

---

(٣) ابن رشيق، العمدة،(١/٢٣٤).

(٤) المرجع السابق،(١/٢٣٦).

(٥) البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (١/ ٣٢٩).

(٦) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، (١/ ٣٩٣).

وكقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴾ (سورة ص: ٥٥)؛ أي الأمر هذا، أو هذا كما ذكر، وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ (سورة: ص) ونحوه قول الكاتب هذا)[٧].

وقال محمد الجرجاني: (أما التخلص: فهو الانتقال من التشبيب أو غيره إلى المقصود، فإن السامعين يترصدونه، فإن كان حسناً مناسب الطرفين حركهم النشاط على الإصغاء لكلامه، وإلا أحجمت أسماعهم)[٨].

ويفهم من هذا أن التخلص على نوعين: محمود؛ وهو الذي يلتئم فيه الكلام، وتدعو الحاجة إليه، ومذموم؛ وهو ما لم يحسن الانتقال فيه من جهة المعنى وموافقة الكلام.

و(هو فن مشهور ذائع في كلام البلغاء، وهو امتزاج ما يقدمه الكاتب أو الشاعر في البسط بأول ما استهل به كلامه - كالبيت الأول من القصيدة، والفقرة الأولى من المقالة - على أن يختلس ذلك اختلاساً رشيقاً دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني، لشدة الممازجة والالتئام، كأنهما أفرغا في قالب واحد، أو يوطئ الكاتب فيه بفصل لفصل)[٩].

المطلب الثاني: تعريف حسن التخلص عند علماء علوم القرآن

ورد استعمال هذا المصطلح البلاغي عند علماء علوم القرآن الكريم، ولا تكاد تجد فرقًا كبيراً بين ما عند هؤلاء وما عند علماء البلاغة في مفهومه، وغالباً ما يذكرونه تحت مبحث المناسبات.

---

(٧) المصدر الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (١/ ٣٩٤).

(٨) الجرجاني، الإشارات والتنبيهات، ص ٣٢٢.

(٩) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن، (١٢/٣٧٥).

فتجد الزركشي تحت باب "معرفة المناسبات بين الآيات" يذهب إلى وجود هذا الفن في القرآن الكريم، ويرد على من ينكره، فتراه يفند قول الغانمي[١٠]: "ليس في القرآن شيء منه لما فيه من تكلف"، ويقول:

(وليس كما قال، ومن أحسن أمثلته: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥)، فإن فيها خمس تخلصات؛ وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه، ثم التخلص منه إلى ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء"[١١]ثم ذكر شواهد أخرى من القرآن الكريم.

ثم قال: " واعلم أنه حيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له، ومن بديعه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٢) يشير إلى قصة يوسف _عليه السلام _ فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز، وكقوله سبحانه موطئاً للتخلص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح _عليه السلام_ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ (آل عمران: ٣٣)[١٢].

وقد عرفه السيوطي أخذاً عمن سبقه ممن ذكرت آنفاً، فقال: (هو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود، على وجه سهل يختلسه اختلاساً دقيق المعنى، بحيث لا

---

(١٠) هو: أبو العلاء محمد بن غانم.

(١١) الزركشي، البرهان، (٤٣/١).

(١٢) المصدر نفسه، (٤٥/١).

يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني ؛ لشدة الالتئام بينهما)[١٣].

المطلب الثالث: بيان العلاقة بين حسن التخلص وعلم المناسبات

علم المناسبات باب واسع عند العلماء، وهو يبحث في العلاقة بين الآيات، أما علاقة حسن التخلص بعلم المناسبات فهي علاقة الفرع بالأصل، فحسن التخلص جزء من علم المناسبات.

قال البقاعي وهو يتحدث عن المناسبات: هو"علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة، لأدائه الى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، لذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكان من علم التفسير كنسبة علم البيان من النحو"[١٤]. وحسن التخلص من علم المناسبات كنسبة البديع إلى البيان، لذلك كان هذا الفن وطيد الصلة بأصله وهي المناسبات.

وإذ كانت المناسبة تظهر ارتباط الآيات بعضها ببعض، فإن التخلص هو ذلك الرابط، وكل ذلك من بديع نظم القرآن الكريم، وفيه يقول سيد قطب _ وهو يصور تعجب المغيرة عندما سمع آيات من الكتاب العزيز_ : (إن السحر الذي عناه الوليد بن المغيرة كان كامناً في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية، لابد أنه كامن في صميم النسق القرآني)[١٥]. وحسن التخلص جاء لمراعاة هذا النسق.

---

(١٣) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن،(٢/ ٢٩١).

(١٤) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآي والسور،(١/٣).

(١٥) سيد قطب، التصوير الفني، ص١٩.

قال الزركشي – في حديثه عن المناسبات – : "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط، وقال بعض الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعاً.

وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم، وفوائده غزيرة، قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله _عز وجل_ لنا فيه، فلما لم نجد له حملةً ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه.

ثم قال تحت عنوان (أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض) "...عدنا إلى ذكر ارتباط الآي بعضها ببعض، فنقول: ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما؛ لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير، أو الاعتراض والتشديد، وهذا القسم لا كلام فيه...

ثم ذكر تحت هذا حسن التخلص فقال: ".... يظهر لك اشتمال القرآن العظيم على النوع المسمى بالتخلص"[(١٦)].

وبذلك يظهر أن حسن التخلص مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمناسبات.

---

(١٦) الزركشي، البرهان، (٤٣/١).

ومثل نزول القرآن منجما "كمثل بنيان كان قائما على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته ثم فرق أنقاضا، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصا يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة"[١٧].

وههنا مثال على الارتباط بين المناسبة وحسن التخلص، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.(يونس: ٥٩).

قال ابن عاشور: (استئناف أمر النبيء -صلى الله عليه وسلم_ بأن يقوله للمشركين. وافتتاحه ب {قلْ} لقصد توجيه الأسماع إليه، ومناسبة وقوعه عقب ما تقدم أن الكلام المتقدم حكى تكذيبهم بالقرآن وادعاءهم أنه مفترى، وأنه ليس بحق، ثم إبطال أن يكون القرآن مفترًى على الله؛ لأنه اشتمل على تفصيل الشريعة، وتصديق الكتب السالفة، ولأنه أعجز مكذبيه عن معارضته. فلما استوفى ذلك بأوضح حجة، وبانت لقاصد الاهتداء المحجة، لا جرم دالت النوبة إلى إظهار خطل عقولهم واختلال تكذيبهم، فإنه بعد أن كان تكذيباً بما لم يحيطوا بعلمه، فقد ارتبكوا في دينهم بما يلزمهم منه مماثلة الحالة التي أنكروها، فإنهم قد وضعوا ديناً فجعلوا بعض أرزاقهم حلالاً لهم، وبعضها حراماً عليهم، فإن كان ذلك حقاً بزعمهم فمن الذي أبلغهم تلك الشرائع عن الله ؟ ولماذا تقبلوها عمن شرعها لهم ولم يكذبوه وهم لا يستطيعون أن يلتزموا ذلك ؟، وإن كان ذلك من تلقاء أنفسهم فقد افتروا على الله، فلزمهم ما ألصقوه بالنبيء _صلى الله عليه وسلم_ فعلق بهم وبرأ الله منه رسوله، فهذا الاستدلال من الطريق المسمى بالقلب في علم الجدل.

(١٧) دراز،النبأ العظيم، ص ١٥٥.

ثم إن اختيار الاستدلال عليهم بشيء من تشريعهم في خصوص أرزاقهم يزيد هذا الاستدلال مناسبةً بآخر الكلام الذي قبله ؛ ليظهر ما فيه من حسن التخلص إليه ، وذلك أن آخر الكلام المتقدم جملة : ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس : ٥٨)، أي من أموالهم ، وتلك الأموال هي التي رزقهم الله إياها ، فجعلوا منها حلالاً ومنها حراماً ، وكفروا نعمة الله إذ حرموا على أنفسهم من طيبات ما أعطاهم ربهم ، وحسبهم بذلك شناعةً بهم ملصقة ، وأبواباً من الخير في وجوههم مغلقة)[١٨].

المطلب الرابع: أهمية حسن التخلص، وبيان كونه وجهاً من أوجه الإعجاز البياني

حسن التخلص في القرآن الكريم من الأدلة الساطعة على علو بلاغته ، ودقة معانيه غير المتناهية في الكمال ، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه وجه من أوجه الإعجاز ، قال الباقلاني : (القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة ، يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر في الإفراد إلى حد الآحاد ، وهذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحة ، ويخرج به الكلام عن حد العادة ، ويتجاوز العرف)[١٩] ثم جاء بذكر الأمثلة على ذلك ، حيث قال : (تأمل السورة التي يذكر فيها النمل ، وانظر في كل كلمة كلمة ، وفصل فصل ، بدأ بذكر السورة ، فبين أن القرآن من عنده ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل : ٦)، ثم وصل بذلك قصة موسى –عليه السلام - وأنه رأى ناراً.

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (النمل : ٧)......ثم قال : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (النمل :٨)، فانظر إلى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء ، وعظم

---

(١٨) ابن عاشور، التحرير والتنوير،(١١/ ١١٥).

(١٩) الباقلاني، إعجاز القرآن،ص٣٢.

أمر هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية، وما دل بها عليها، من قلب العصا حيةً، وجعلها دليلاً يدله عليه، ومعجزةً تهديه إليه.

وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به من هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء.

ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف ؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غايةً، وفي الدلالة آيةً، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها، تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟ ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلاً، ببديع التأليف، وبليغ التنزيل)[20].

والتخلص من معنى إلى آخر بين الآيات المتناسبة، يأتي بنسق عجيب لترابط الآيات بعضها ببعض فتأخذ بحجز بعضها، حتى تكون كالآية الواحدة متسقة المعاني، مرتبطة المباني، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم(فكما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته)[21]، وحسن التخلص يجيء لمراعاة النظم لفظاً ومعنًى، أما لفظاً: فلأنه لو لم يأت حسن التخلص لاحتجنا إلى كلام كثير لا يتلاءم مع سباق الآية ولحاقها، فضلاً عن سياقها؛ حتى يحصل الترابط بين المعاني وهذا مما يأباه النظم، وهذه المهمة الصعبة يقوم بها التخلص بكامل الروعة والحسن، و أما من حيث المعنى: فيأتي لتداخل معنى ما قبله بما بعده،

---

(٢٠) الباقلاني، إعجاز القرآن،ص١٢٣-١٢٤ بتصرف.

(٢١) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن،(١/٥٦).

فيأتي رابطاً بين المعنيين، فلا تظهر فجوة من خلاله عند الانتقال إلى معنًى جديد، فحسن التخلص من بديع النظم القرآني، و (إذا كان منبع السحر والإعجاز في القرآن الكريم هو في نظمه، وأن جهات النظم ثلاثة: في الحروف، والكلمات، والجمل، كان لابد لنا من إفراد كل جهة بالكلام؛ لنبين من خلال تناسب حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، وجمله في سوره ما يطلعنا على النقص في كلام البلغاء، وانحطاطه عن مرتبة القرآن، وظهوره على سائر الكلام"[٢٢].

وبذلك يظهر الإعجاز البياني من خلال حسن التخلص؛ بالتسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض.

وممن أشار إلى جوانب الإعجاز البياني في حسن التخلص من المعاصرين الدكتور محمد عبد الله دراز؛ حيث رأى في حسن التخلص قوة الربط بين المقاصد القرآنية، وتآخي اللفظ والمعنى، إذ يقول: (انظر إلى حسن التخلص في ربطه بين المقصد القديم والمقصد الجديد، على وجه به يتصلان لفظاً، وبه ينفصلان حكماً، فهو في جمعها لفظاً كأنه يضع إحدى قدميك عند آخر الماضي، وثانيتهما عند أول المستقبل، ولكنه في تفريقها حكماً بأداتي النفي والاستدراك كأنما يحول قدميك جميعاً إلى الأمام﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾(سورة البقرة: ١٧٧)، ولكن يقول: إن مسألة تعيين الأماكن والجهات في مظاهر العبادات تلك.

المسألة التي شغلت بال المخالفين والمؤلفين نقداً ورداً ليست هي كل ما يطلب الاشتغال به من أمر البر؛ بل هي شعبة واحدة من جملة الشعب التي تشتمل عليها خصلة واحدة من جملة خصاله، وإنما البر كلمة جامعة لخصال الخير كلها نظريةً وعمليةً في معاملة المخلوق، وعبادة الخلق، وتزكية الأخلاق، فبتلك الخصال جميعها

---

(٢٢) سيد قطب،التصوير الفني، ص٧٩.

فليشغل المؤمنون الصادقون، ثم انظر إليه حين أقدم على تفصيل تلك الخصال؛ كيف أنه لم يقبل عليها دفعةً واحدةً؛ بل أخذ يتدرج إليها في رفق ولين؛ فتقدم بكلمة فوق الإجمال ودون التفصيل، هي بمثابة فهرس لقواعد الإيمان ولشرائع الإسلام﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ (سورة البقرة: ١٧٧)، وانظر إلى سرد قواعد الإيمان هنا، كيف عدل بها عن ترتيبها المطبوع الذي راعاه في صدر السورة غير مرة، فتراه هنا يجمع بين الطرفين: الإيمان بالله واليوم الآخر، وختم بالواسطة: الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين؛ ذلك لأن من هذه الوسائط تعرف الأحكام الشرعية، وعن يدها تؤخذ، فأخرها لتتصل بها تلك الأحكام، حتى لا يحول بين الأصل وفرعه حائل، ولذلك راعى ترتيب أركان هذه الواسطة فيما بينها، فصدر بالملائكة وهم حملة الوحي، وثنى بالكتاب وهو الوحي المحمول، وثلث بالنبيين وهم مهبط الوحي، ومن هناك اتصل ببيان تلك الشرائع التي وصلت إلينا عن طريق النبوة)[٢٣].

قال الدكتور عبد الله دراز - وهو يتحدث عن أوجه إعجاز القرآن - (لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات)[٢٤].

فإذا كان ترتيب آي القرآن معجز، فإن انتقاله من معنى الى آخر بخفة، جزء من هذا الإعجاز، وهذا الانتقال المؤنس للسامع معجزة بحد ذاته أيضا، وهذا هو حسن التخلص.

---

(٢٣) دراز،النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، ص١٩٤ وما بعدها.

(٢٤) المرجع السابق، ص٢١١.

المطلب الخامس: بيان اهتمام المفسرين بحسن التخلص في القرآن

تنبه المفسرون إلى أهمية حسن التخلص في بيان المعاني القرآنية، وتجلية التناسب المعنوي بين الآيات، إلا أن قسماً منهم لم يعن بهذا الجانب كثيراً، وقسم أولاه بالغ الاهتمام فأكثر من ذكره، وجرى على بيانه في تفسيره، ومنهم الإمام الرازي في مفاتيح الغيب، والإمام البقاعي في تناسق الدرر، والإمام ابن عاشور في التحرير والتنوير.

وفي ما يلي سأذكر بعض النماذج من حسن التخلص عند المفسرين في موضوعات القصص والعقيدة والأحكام.

أولا: حسن التخلص في القصص القرآني:

ومن ذلك: ما ورد في قصة سيدنا يوسف -عليه السلام- قال الزركشي:

(واعلم أنه حيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له، ومن بديعه: قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (يوسف: ٣) يشير إلى قصة يوسف -عليه السلام- فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة، يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز وكقوله سبحانه موطئاً للتخلص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح -عليه السلام- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(آل عمران: ٣٣)[٢٥].

- حسن التخلص من القصة إلى الحكم

---

(٢٥) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (١/٤٤-٤٥).

ومن الأمثلة على حسن الانتقال من القصة إلى الحكم الشرعي ما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾(النحل: ٩٠).

إذ لما جاء أن هذا القرآن تبيان لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين حسن التخلص إلى تبيان أصول الهدى في التشريع للدين الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي، إذ الشريعة كلها أمر ونهي والتقوى منحصرة في الامتثال والاجتناب. فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبياناً لكل شيء، فهي جامعة لأصول التشريع.

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بشأن ما حوته. وتصديرها باسم الجلالة للتشريف، وذكر {يَأۡمُرُ} و {يَنۡهَى} دون أن يقال: اعدلوا واجتنبوا الفحشاء، للتشويق[٢٦].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٥١).

نزلت في كعب بن الأشرف كان قدم إلى مكة وشاهد قتلى بدر وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم وغزو النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: من أهدى سبيلا؟ المؤمنون أم هم. فقال أنتم قالها كذبا منه وضلالة[٢٧].

فهذه الآية نزلت في حقه وحق من شاركه في تلك المقالة، وهم أهل كتاب ومعلوم أنه جاء في كتبهم وصف النبي صلى الله عليه وسلم ونبوته، ولزوم اتباعه ونصرته، لكنهم ماكانوا أمناء فأخفوا وبدلوا وحرفوا، وهذا مناسب لما بعده قال

---

(٢٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير،(١٣/ ٢٠٤).

(٢٧) ينظر أسباب النزول للواحدي، ص ١١٤.

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥٨) (وهذه نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري حاجب الكعبة لما أخذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة ثم رده عليه)[٢٨].

قال ابن العربي "وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وقولهم: إن المشركين أهدى سبيلاً، فكان ذلك خيانة منهم، فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات"[٢٩].

ووجه التخلص أنه بعد أن وصف هؤلاء بكتمان الأمانة وذكر قصتهم تخلص ليبين الأحكام المتعلقة بالأمانة، وهذه العلاقةفيها الانتقال من النموذج إلى أصل المسألة.

ثانياً: حسن التخلص في الأحكام الشرعية.

ومن هذا قوله تعالى: **(وأتموا الحج والعمرة لله)** الآية: (البقرة: ١٩٦)، فوجه اتصال هذه الآيات بما قبلها جلي، إذ إن آيات القتال السابقة نزلت في بيان أحكام الأشهر الحرم والإحرام والمسجد الحرام، فكان الغرض الأول من السياق بيان أحكام الحج بعد بيان أحكام الصيام، لأن شهوره بعد شهره الذي هو رمضان"[٣٠].

والعلاقة بين أحكام الصيام والحج هي الترتيب الزمني، فحسن التخلص من أحكام الصيام الى أحكام الحج لتتابعهما زمنياً، وهو انتقال بيّن واضح.

---

(٢٨) ينظر أسباب النزول للواحدي، ص ١١٦.

(٢٩) الزركشي، البرهان،(١/٢٦).

(٣٠) محمد رشيد رضا،تفسير المنار،(١ /٢١٧).

ثالثاً: حسن التخلص في الأحكام العقدية.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ (الصافات: ٦٢)، وهذا من بديع التخلص، (فإنه سبحانه خلص من وصف المخلصين وما أعد لهم إلى وصف الظالمين وما أعد لهم)[٣١].

وهذا تخلص من وصف إلى نقيضه دون أن يشعر القارئ أو المستمع بفجوة أو انقطاع مع إحساسه بالترابط، ، وقد جعل القرآن هذا في إطار مقارنة عقلية بين الوصفين، فبعد أن وصف المتقين وما أعد لهم وارتقت الأحاسيس في عجيب ما أعد لهم، واشرأبت النفوس شوقاً إلى تلك النزل، جاء باستفهام يستحث تلك النفوس على أن تبادر إلى الإجابة المنطقية الوحيدة بالموازنة العقلية، ثم أشار إلى كل الأوصاف السابقة بقوله (أذلك خير نزلاً)، ليخلص إلى وصف آخر وهو نزل المجرمين.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية لحسن التخلص في سورة النور

سورة النور مدنية وآياتها أربع وستون آية[٣٢] ووجه التسمية أن فيها آية ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور: ٣٥)[٣٣].

وشملت من الأغراض كثيراً من أحكام معاشرة الرجال للنساء، ومن آداب الخلطة والزيارة، وأول ما نزلت بسببه قضية التزوج بامرأة اشتهرت بالزنا وصدر ذلك

---

(٣١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (٤٤/١).

(٣٢) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، (٤٠٧/٢).

(٣٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨ /١١٢).

ببيان حد الزنا، وعقاب الذين يقذفون المحصنات، وحكم اللعان. وأحكام الاستئذان، وصفات المتقين وصفات الكافرين[٣٤].

المطلب الأول: الانتقال من التأصيل إلى التفصيل

جاءت أول آية في السورة تقرر ما اشتملت عليه من فرائض وأحكام، وختمت الآية بالتعليل المرجو من المخاطبين بمعرفة هذه الأحكام، ثم حَسُنَ التخلص إلى حكم مخصوص تنبني عليه الأحكام التالية الواردة في السورة الكريمة.

فقوله"﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قال مجاهد وقتادة: أيْ بيّنا الحلال والحرام والأمر والنهي، والحدود. وقال البخاري: ومن قرأ "فَرّضْناها" يقول: فَرَضْنا عليكم وعلى من بعدكم[٣٥]."

والعلاقة بين قوله تعالى ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (**النور: ١**) وقوله بعده ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾(النور: ٣) هو الانتقال من تقرير الفرائض و الأحكام إلى البيان التفصيلي لأحكام السورة، "فقوله سورة أنزلناها، أي هذه سورة أنزلناها وفرضناها، يعني: ما فرض في هذه السورة وحد فيها من حدوده، وتقرأ فرَّضناها بالتثقيل، يعني: بيناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون؛ لكي تذكروا"[٣٦]فهو بعد أن ذكر وجهة السورة ونبه إلى أنها جاءت لتقرير أحكام تتعلق بشؤون الناس، انتقل مباشرةً و الأذهان منتبهة ومنتظرة ليوجهها إلى حكم مقترف فاحشة الزنا، وهو انتقال من التأصيل إلى التفصيل.

---

(٣٤) المرجع السابق، (١١٣/١٨).

(٣٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،(٥/٦).

(٣٦) أبو عبد الله بن أبي زمنين المري، تفسير ابن أبي زمنين،(٤٦١/١).

ونجد في قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ﴾ تشريعاً لعقوبة الزنا.. ثم تخلص من ذكر العقوبة إلى ما هو أخص ليفصل في حكم كل من الزاني والزانية فقال: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ ﴾(النور: ٣)، قال ابن عاشور" فإن تشنيع حال البغايا جدير بأن يقدم قوله ما هو أجدر بالتشريع وهو عقوبة فاعل الزنا؛ ذلك أن مرثد ما بعثه على الرغبة في تزوج عناق إلا ما عرضته عليه من أن يزني معها"[٣٧].

المطلب الثاني: الانتقال من الإجمال إلى التفصيل

فبعد تقرير أن سورة النور سورة أحكام وحدود، نجد أن الآية الأولى وطّأت لما بعدها فقوله ﴿ سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ﴾ يشير إلى الأحكام في السورة فوطأ بهذه الجملة وتخلص بقوله ﴿ وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النور: ١) إلى ذكر الأحكام التي نزلت في السورة، وجاء هذا التخلص بحرف العطف، وهذا التخلص ربط بين بداية الآيات وما بعدها، فذكر النزول ووطأ لذكر أحكام السورة ثم انتقل لتفصيل هذه الأحكام، فجاء بحد الزنا قال عز من قائل: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (النور: ٢) ثم تخلص من حد الزنا لينتقل إلى أحوال الزناة ذكوراً وإناثاً، فقال: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (النور: ٣) وهذا انتقال من حكم إلى حكم آخر، فالأول تضمن العقوبة الآتية، والثاني تضمن أحوال الزناة ووضعهم في المجتمع بعد اقتراف هذه الفاحشة.

---

(٣٧) ابن عاشور، التحرير والتنوير(١٨/١١٨).

المطلب الثالث: الانتقال من حكم إلى حكم آخر

(حسن التخلص من حد الزنا إلى حد القذف)

ثم انتقل القرآن من ذكر الزناة وأحكامهم، إلى متعلق من متعلقاته وهو التهمة بالزنا فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٤).

فبعد أن بين ما يتعلق بحكم الزنا، تخلص إلى حكم آخر وهو التهمة بالزنا، وجاء التخلص بحرف العطف، ووجه الصلة بين الحكمين ارتباطهما بفاحشة الزنا ونوع العقوبة، وهو انتقال من حكم إلى حكم آخر فالحكم الأول متعلق بفعل الفاحشة وفاعلها، والثاني متعلق بشهادة الشاهد على الفاعل والواقعة.

وهنا بديع التخلص من ذكر من ثبتت عليه الفاحشة إلى وسيلة إثباتها، والرابط معنوي؛ فكما غلظ في عقوبة الزناة غلظ في عقوبة من يرمي نساء المؤمنين بالزنا، صيانةً للأعراض، وحيث إن العقوبة فيها ردع للفاعل ولغيره، فإن اتهام المؤمنات بلا بينة يستوجب عقوبةً رادعةً لمن أطلق لسانه في أعراض الناس ولغيره.

ثم تخلص من حد القذف إلى اللعان وهذا انتقال من حكم عام إلى حكم أخص، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور: ٤ - ١٠).

فبعد أن فصل حكم واقعة الزنا مبينًا حد الفاعل والشاهد، وحد اللعان، تخلص إلى ذكر حادثة الإفك، وهو انتقال من الحكم إلى النموذج، وهو نموذج على القذف بالباطل.

المطلب الرابع: الانتقال من الحكم إلى النموذج

(حسن التخلص من حد القذف واللعان إلى حادثة الإفك)

بعد أن قرر حكم الزنا والقذف به، انتقل من الحكم إلى الواقعة، فتخلص من الحكم بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾(النور: ١٠) إلى النموذج "صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رضي الله عنها"[٣٨]، وهذا النموذج هو حادثة الإفك"وكل الآيات التي سبقتها إنما كانت مقدمة لتبرئتها"[٣٩]. فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(النور: ١١ - ١٨).

فبعد بيان الحكم جاء بالنموذج ليكون أدعى في الزجر والتقريع، فهو سبحانه أعلمهم بالحكم، ثم ذكر لهم ما فعلوه ليكونوا شهداء على أنفسهم، وليعلموا عظم ما وقعوا فيه فقد"أنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه"[٤٠].

وفي هذا النموذج توطئة لحكم آتٍ يتعلق بالنظر والخلوة.

---

(٣٨) السعدي، تيسير الكريم الرحمن،(١ /٥٦٢).

(٣٩) فاضل السامرائي، لمسات بيانية،(٣/١).

(٤٠) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،(٤/٣٢٦).

المطلب الخامس: الانتقال من الحكم إلى الوصف

(التخلص من حادثة الإفك إلى بيان صفة المنافقين)

انتقل القرآن إلى متعلق نفسي مشيراً إلى مرض قلبي تلبس بالمنافقين فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(النور: ١٩) فبين حكم هؤلاء، ووجه الصلة بين حادثة الإفك وهذه الآية أنها بينت صفة قلبية يتصف بها المنافقون الذين تكلموا في السيدة عائشة -رضي الله عنها - فهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

المطلب السادس: الانتقال من الحكم إلى السبب

نبه القرآن إلى عدم الاقتراب من الزنا، لأن الله -عز وجل - أعلم بما يصلح الإنسان وما يفسده، فالوقوع في فاحشة الزنا لا يأتي فجأة، بل له مقدمات ومداخل وأسباب، والشارع الحكيم عالج هذه الأمور كلها، فالنظر هو المدخل الأعظم للزنا: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) وهنا قرن الله -عز وجل - بين النظر وحفظ الفرج، والعلاقة واضحة، وحتى ينضبط هذا الأمر جعل الشارع كل التحصينات اللازمة لتحقق ذلك، ومن ذلك تتبين العلاقة بين الانتقال من حكم الزنا إلى حكم الاستئذان؛ إذ للبيوت حرمات، والداخل دون استئذان ربما رأى من أهل البيت الذي يطرقه مالا يحل له، فيكون ذلك مدخلاً للزنا، وهذا تخلص من الحكم إلى بيان السبب، فيقدم بعد الحكم الأسباب الوقائية والمحصنات اللازمة لتجنب الوقوع في فاحشة الزنا.

قال الرازي: (اعلم أنه تعالى عدل عما يتصل بالرمي والقذف وما يتعلق بهما من الحكم الى ما يليق به؛ لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة، فصارت كأنها طريق التهمة فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت

غيره إلا بعد الاستئذان والسلام؛ لأن في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة، وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به فقال: (يا أيها الذين ءامنوا) الآية)[٤١].

ثم انتقل إلى متعلق قلبي وهو سبب آخر من أسباب الزنا فطلب من المؤمنين غض أبصارهم، فقد لا يتمكن المرء من التحرز عن الاختلاط ورؤية ما يعجبه، فأمر بغض البصر؛ لأن الله -عز وجل- بصير بقلوب عباده.

والعلاقة بين أحكام الاستئذان والأمر بغض البصر أن كلاً منهما من الأحكام الوقائية التي تحمي المسلم من فاحشة الزنا.

"وكلها أسباب وقائية لضمانة الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور"[٤٢].

ثم تخلص إلى حكم آخر وهو النكاح فقال: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ (النور: ٣٢)

ثم تخلص إلى حكم أخلاقي متعلق بالنكاح وهو أحد موانع الوقوع في فاحشة الزنا ألا وهو العفة فقال: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ (النور: ٣٣) وهنا تخلص من حكم الى حكم آخر، والرابط أنه ختم الآية الأولى بذكر أن النكاح من أسباب الغنى والمخرج من الفقر، فناسب أن يذكر بعده حكماً متعلقاً بطالب النكاح الذي يمنعه الفقر.

المطلب السابع: الانتقال من الأحكام إلى وصفه لذاته سبحانه وضرب المثل

ثم تخلص من ذكر الأحكام المتعلقة بالزنا والنكاح، إلى ذكر الله عز وجل، وهذا من أعجب تخلصات القرآن الكريم، فقد يظن أن لا علاقة بين هذه الأحكام والانتقال مباشرة إلى آية النور، مع أن النفس لا تشعر بفجوة أو انقطاع من هذا الانتقال.

---

(٤١) الرازي، مفاتيح الغيب،(٣٥٦/٢٣).

(٤٢) سيد قطب، في ظلال القرآن،(٢٤٨٤/٤).

ووطأ إلى هذا التخلص بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(النور: ٣٤) "ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبيَّنها قال: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ يعني: القرآن فيه آيات واضحات مفسرات، ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(النور: ٣٤) أي: خبراً عن الأمم الماضية"[٤٣].

ولما كانت دواعي الزنا وأسبابه لا يتحرز عنها إلا بطهارة القلب ولزوم تقوى الله ومراقبته، ولما ورد في الآيات أن النكاح سبب في الغنى مع أنه مظنة زائدة في الفقر، كان هذا محتاجا إلى يقين زائد واعتماد صادق على مسبب الأسباب هذا الاعتماد القلبي يحتاج إلى إيمان عميق، وهذا الإيمان يتطلب معرفة المزيد عن ذات الله عز وجل وصفاته، فيعظمه قلب المؤمن ويوقن أن قوله الحق فيندفع من قلبه شعور يحرك أركانه إلى فعل المأمور وترك المزجور، بذلك يتبين حسن التخلص من ذكر الأحكام إلى وصف الله عز وجل لذاته سبحانه. والرابط بينهما قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (النور: ٣٤)، فهذه الآية ربطت بين الحكم الذي هو بمثابة السبب والشارع الذي هو المسبب، فناسب بعدها الانتقال إلى وصف الله عز وجل لذاته.

قال أبو السعود في هذه الآية: "كلامٌ مستأنف جيءَ به في تضاعيف ما وردَ من الآياتِ السَّابقةِ واللاَّحقةِ لبيانِ جلالةِ شؤونها المستوجبةِ للإقبالِ الكليِّ العمليِّ بمضمونِها، وصُدِّر بالقسم الذي تُعرب عنه اللاَّمُ لإبراز كمالِ العنايةِ بشأنهِ؛ أي وباللَّهِ

(٤٣) ابن كثير،تفسير القرآن العظيم،(٦ /٥٧).

لقد أنزلنا إليكم في هذه السورةِ الكريمة آياتٍ مبيِّناتٍ لكلِّ ما بكم حاجةٌ إلى بيانه من الحدود وسائرِ الأحكام والآدابِ"(٤٤).

ولعل من لطيف التناسب الذي ظهر بحسن التخلص بين آية النور و آيات النظر وغض البصر أن غض البصر يكسب القلب نورا، لذا جاءت آية النور بعد ذلك، كما أن إطلاق البصر دون ضوابط يكسب القلب ظلمة.

فقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (النور: ٣٥).

"قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يدبر الأمر فيهما"(٤٥) و"عن أُبيّ بن كعب في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قال: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به"(٤٦). "وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، والاسم الشريف مبتدأ، و ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خبره، إما على حذف مضاف، أي: ذو نور السموات، والأرض، أو لكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله، وظهور عدله، وبسطه أحكامه"(٤٧).

---

(٤٤) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،(٥/١٠٢).

(٤٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،(٦/٥٧).

(٤٦) المصدر السابق، (٦/٥٧).

(٤٧) الشوكاني، فتح القدير، (٥/٢٢١).

وفي هذه الآية يقول الزركشي في البرهان: " فيها خمس تخلصات؛ وذلك أنه جاء بصفة النور، وتمثيله ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمد منه، ثم التخلص منه إلى ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء"[٤٨].

المطلب الثامن: الانتقال من الحكم العقدي إلى الأثر العملي المترتب عليه

تخلص من آية النور التي بها تنزيهه وبيان قدرته وإحاطته إلى لازمه المطلوب من العبد وهو ذكره وتسبيحه فقال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ (النور: ٣٦) "وبيوت الله هي الأماكن التي تتنزل فيها الرحمات من الحق سبحانه وتعالى.....، أي أن الذين يرون هذا النور ويتنزل عليهم هم عمار المساجد"[٤٩] فهذه العلاقة المعنوية تمثل الرابط بين الآيتين.

و(قد ذكر أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل؛ لأن هذه الأزمنة هي التي يطلب فيها الذكر. فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة، وفي نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم "[٥٠].

فذكر أن له أماكن مخصصة لذلك، وأصحابها رجال عباد مخلصون ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾(النور: ٣٧). وهذا تخلص من الحكم العقدي إلى الأثر العملي المترتب عليه.

---

(٤٨) الزركشي، البرهان،(١/٤٣).
(٤٩) الشعراوي،تفسير الشعراوي،(١/٣٤٠٦).
(٥٠) المرجع السابق،(١/٣١٨٤).

المطلب التاسع: الانتقال من وصف المتقين إلى جزائهم

ثم تخلص لذكر جزاء هؤلاء المؤمنين المتقين ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(النور: ٣٨).

المطلب العاشر: الانتقال من ذكر المتقين إلى ذكر الكافرين

ولما ذكر المتقين وجزاءهم ناسب الكلام على ضدهم وهم الذين كفروا، فعندما يذكر الحسن يخطر في النفس نقيضه فجاءت المقابلة وهي من تخلصات القرآن الكريم في الموازنة بين المتقين والكافرين ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(النور: ٣٩)

وكلامه عن أعمال الكافرين جاء في تشبيه معقول بمحسوس وهو السراب، ثم تخلص إلى تشبيه آخر فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ **(النور: ٤٠)** ثم تخلص من التشبيه إلى بيان دلائل القدرة الإلهية فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (النور: ٤١) وبعد أن ختم الآية بذكر صفة العلم حيث إنه سبحانه يعلم تسبيح من في السموات والأرض، ناسب أن يذكر بعدها صفة أخرى له سبحانه وهي الملك فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ **(النور: ٤٢)**، قال أبو حيان: (ثم تخلص من تقرير حكم عقدي وهو ملكه لكل شيء إلى الكلام عن أحد أفراد ملكه الذين ذكرهم في الآية، وهو ملكه للأرض، فذكر آية دالة على ملكه لها فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ

يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ (النور: ٤٣) وهذه آية حسية يشاهدها الإنسان، ثم ذكر آيتين كونيتين تدلان على ملكه وقدرته.

قال الرازي: ((وإلى الله المصير) عبارة تامة في معرفة المعاد، وهو أنه لا بد من مصير الكل إليه سبحانه، وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الأشرف فالأشرف نازلا من الأخس فالأخس، مترقيا الى الأشرف فالأشرف؛ فإنه يكون جسما ثم يصيره موصوفا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الإنسانية ثم الملكية، ثم ينتهي إلى واجب الوجود لذاته فالاعتبار الأول هو قوله ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ والثاني هو قوله ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [٥١].

وقال ابن عاشور: (أعقب الدلالة على إعطاء الهوى في قوانين الإلهام في العجماوات بالدلالة على خلق الخصائص في الجماد، بحيث الذي قدره الله لها سيرا لايتغير فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين الذين لهم عقول وحواس لايهتدون بها إلى معرفه الله تعالى والنظر في أدلتها. وفي ذلك دلالة على عظمة القدرة وسعة العلم ووحدانية التصرف، وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو حتى آل إلى قوله (فيصيب به من ما يشاء ويصرفه عمن يشاء) وقد حصل من هذا حسن تخلص للانتقال إلى الاستدلال على عظم القدرة وسمو الحكمة وسعه العلم الإلهي) [٥٢].

وبعد أن بين قدرته وذكر شواهد يراها كل أحد فلا يظن أن ينكر عاقل هذه القدرة، حسن أن يتخلص ليصف حال المنافقين قال الرازي: (اعلم أنه لما ذكر دلائل التوحيد أتبعه بذكر قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم) [٥٣].

---

(٥١) الرازي، مفاتيح الغيب،(٢٤/٤٠٩).

(٥٢) ابن عاشور،التحرير والتنوير، (١٨/٢٠٨).

(٥٣) الرازي، مفاتيح الغيب،(٢٤/٤٠٩).

قال سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾(النور: ٤٧ - ٥٠).

ثم تخلص لوصف المؤمنين على أسلوب المقابلة فقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾(النور: ٥١ - ٥٢).

وتمضي الآيات في وصف الفريقين وجزاء كل فريق في الدنيا والآخرة.

ثم نرى الآيات ترجع إلى حكم سبق الكلام عنه وهو الاستئذان؛ ليشير بذلك إلى أن الزنا أصل كل رذيلة وفجور وترك للطاعة، وليشير إلى ضرورة الالتزام بالأحكام والشرائع وأنها دليل الإيمان وعلامته وهي الموجبة له والباعثة عليه، والمناسبة في ذكر الاستئذان أنه ارتبط بالصلوات الخمس، فتخلص من الأمر بإقامة الصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور: ٥٦) إلى متابعة أحكام الاستئذان المرتبطة بمواقيت الصلوات

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور: ٥٨) قال ابن عاشور: (استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة، وهو عود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة وقطع عن قوله

(وموعظة للمتقين) وقد ذكر قبل هذه الآية شروع الاستئذان لأتباع العائلة ومن هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت فهو من متممات ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾(النور: ٢٧)[٥٤].

وبعد أن فصل في أحكام الاستئذان الخاصة في دخول الناس عموما على بعضهم صغاراً وكباراً وما يتعلق بها، تخلص إلى حكم خاص وهو أدب التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم، والاستئذان منه، وهذا تخلص من حكم عام إلى حكم خاص فالاستئذان من النبي - صلى اله عليه وسلم - فيه خصوصية زائدة لا تكون بين الناس بعضهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم اختتمت السورة بقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾ (النور: ٦٢ - ٦٤)[٥٥].

---

(٥٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير،(١٨/ ٢٣٣).

(٥٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير،(١٨/ ٢٣٣).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فبعد هذا الجهد في هذا الموضوع آن لي أن أسجل خلاصة البحث وخاتمته، وهذه أبرزها:

١ - حسن التخلص من فنون البلاغة العربية، وهو: الانتقال بخفة من فن الى آخر من فنون الكلام، بحيث لا يشعر السامع بفجوة خلال هذا الانتقال مع وجود الانسجام بين تلك المعاني.

٢ - ورد استعمال هذا المصطلح البلاغي عند علماء علوم القرآن والمفسرين ولا تكاد تجد فرقا بين ما عند هؤلاء وما عند علماء البلاغة في مفهومه.

٣ - لحسن التخلص في القرآن فوائد غزيرة حيث إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط كما قال الرازي في تفسيره.

٤ - علاقة حسن التخلص بعلم المناسبات علاقة الفرع بالأصل؛ فحسن التخلص جزء من علم المناسبات، و هو الرابط الذي جاء لمراعاة النسق القرآني.

٥ - قلت عناية بعض المفسرين بهذا النوع من الفن البلاغي وأكثر بعضهم منه، وعني به عناية بالغة ومن هؤلاء الرازي في تفسيره وأبو حيان في تفسيره، ومن المعاصرين ابن عاشور في تفسيره.

٦ - حسن التخلص في القرآن من الأدلة الساطعة على علو بلاغته ودقة معانيه المتناهية في الكمال، وهو وجه معتبر من أوجه الإعجاز البياني، به تظهر قوة الربط بين المقاصد القرآنية وتآخي اللفظ والمعنى.

٧ - حفلت سورة النور بموضوعات متنوعة في العقيدة والأحكام الشرعية والجوانب الخلقية والاجتماعية، فهي متعددة المقاصد والأغراض، وقد بدا حسن التخلص فيها جليا يؤكد إعجاز القرآن ودقة نظمه، وقد أظهر حسن التخلص والانتقال بين آيات السورة وموضوعاتها علاقات ووشائج يمكن إجمالها فيما يلي:

أ) الانتقال من التأصيل إلى التفصيل.

ب) الانتقال من الإجمال إلى التفصيل.

ج) الانتقال من حكم إلى آخر له تعلق به.

د) الانتقال من الحكم إلى النموذج، ومثاله حسن التخلص من حد القذف واللعان إلى حادثة الإفك.

هـ) الانتقال من الحكم إلى الوصف ومثاله التخلص من حادثة الإفك إلى بيان صفة المنافقين.

و) الانتقال من الحكم إلى السبب ومثاله حسن التخلص من آيات الاستئذان إلى آيات النظر وغض البصر.

ز) الانتقال من الأحكام الشرعية إلى آيات الصفات.

ح) الانتقال من الأحكام العقدية إلى الأثر العملي المترتب عليها؛ حيث تخلصت آية النور إلى ذكره وتسبيحه في بيوت أذن الله أن ترفع.

ط) الانتقال من ذكر المتقين إلى جزائهم.

ي) الانتقال من ذكر المتقين إلى ذكر الكافرين.

ك) الانتقال من ذكر الكافرين إلى ذكر دلائل القدرة في الموجودات وأنه وحده سبحانه المستحق للعبادة.

ل) الانتقال من ذكر دلائل القدرة لوصف أحوال المنافقين.

م) الانتقال لوصف المؤمنين على أسلوب المقابلة.

ن) الانتقال للحديث عن الاستئذان ليشير إلى ضرورة الالتزام بالأحكام الشرعية.

س) الانتقال إلى حكم خاص وهو أدب التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم والاستئذان منه، وهذا انتقال من حكم عام إلى حكم خاص.

وفي حسن الانتقال في هذه السورة ترى العلاقة التذييلية ؛ كأن تكون الآية المنتقل إليها متعلقة بالآية المنتقل عنها تعلقا فيه تعليل أو استنتاج أو خلاصة لما سبق.

وتلحظ كذلك علاقة الخاص بالعام وعلاقة النموذج والمثال بالأصل المتفرع عنه، وبيان السبب عقب الحادثة وتجد العلاقة الاستدلالية، والانتقال في الاستدلال حيث ذكر دلالة القدرة في إنزال المطر ثم بعد ذلك دلالة القدرة في الخلق الإنساني والحيواني.

ويبرز لدى القارئ في حسن التخلص في هذه السورة بيان التقسيم والتنويع والتصنيف للأشياء والفئات الإنسانية إزاء القضايا الكونية والشرعية.

وبعد، فهذا الجهد وعلى الله التكلان، والله الموفق للصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

[١] ابن رشيق: أبو الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٢ م.

[٢] ابـن عاشـور: محمـد الطـاهر بـن محمـد بـن محمـد الطـاهر التونسـي (المتـوفى: ١٣٩٣هـ)، **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**، مؤسسـة التـاريخ العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

[٣] ابـن المعتـز: عبـد الله بـن محمـد بـن المتوكـل، **البديع**، تحقيـق: أغنـاطيوس كراتشوفسكي، ط١، دمشق، دار الحكمة.

[٤] إبـراهيم الإبيـارى، **الموسوعة القرآنية**، مؤسسـة سـجل العرب، سـنة الطبـع: ١٤٠٥ هـ.

[٥] أبـو الحسـن مقاتـل بـن سـليمان بـن بشـير الأزدي البلخـي، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيـق: أحمـد فريـد، دار النشـر: دار الكتـب العلميـة - لبنـان/ بيروت - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ط١.

[٦] أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٠، بيروت.

[٧] أبـو الفـداء إسماعيـل بـن عمـر بـن كـثير القرشـي الدمشـقي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيـق: سـامي بـن محمـد سلامة، الناشـر: دار طيبـة للنشـر والتوزيـع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

[٨] أبو عبد الله بن أبي زمنين المري، **تفسير ابن أبي زمنين** [وهو مختصر تفسير يحيى بن سلام]. تحقيق: أحمد فريد ومحمد حسن محمد حسن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، بيروت.

[٩] الباقلاني، محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن الكريم**، تحقيق: صلاح بن محمد عويضة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦م.

[١٠] البغدادي، عبد القادر بن عمر، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق: محمد نبيل طريفي و إميل بديع اليعقوب. دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٨م، ط١.

[١١] برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.

[١٢] الخطيب القزويني، أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط٥، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٣هـ ودار إحياء العلوم -بيروت - ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، الطبعة: الرابعة، تحقيق: الشيخ بهيج غزاوي.

[١٣] الداودي، أحمد بن محمد، **طبقات المفسرين**، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي دراز، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م

[١٤] محمد عبد الله، **النبأ العظيم :نظرات جديدة في القرآن**، دار الثقافة، الدوحة، ط١، ١٩٨٥ م.

[١٥] الرازي، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

[١٦] الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

[١٧] السامرائي، فاضل صالح، **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل**، دار عمار، ١٩٩٨، عمان.

[١٨] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢هـ -٢٠٠٠م.

[١٩] سيد قطب إبراهيم، **التصوير الفني في القرآن**.

[٢٠] السيوطي عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، ١٩٨٨م.

[٢١] **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي.

[٢٢] الشعراوي، محمد متولي ،**تفسير الشعراوي** مطابع دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، راجعه: أ.د أحمد عمر هاشم، ١٩٩١، ٦ أكتوبر، مصر.

[٢٣] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير**، الناشر: محفوظ العلي، ١٩٨٠، بيروت.

[٢٤] العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، **كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر**، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، بيروت، المكتبة المصرية.

[٢٥] محمد الجرجاني، محمد بن علي بن محمد الأسد آباذي، **الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة**، تحقيق: عبد القادر حسين، ط١، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٨١م.

[٢٦] محمد رشيد بن علي رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠ م.

[٢٧] محمود بن عبد الرحيم صافي، **الجدول في إعراب القرآن**، الناشر: دار الرشيد مؤسسة الإيمان – دمشق، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ.

[٢٨] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، **أسباب النزول**، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكه المكرمة، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركائه للنشر والتوزيع – القاهرة.

Smoothing of transition in Al- Noor Surah

Zakarea Alkhader
Assistant Professor At Department of Usul AlFiqh, Faculty of Sharia and Islamic Studies, Yarmuk University

(Received 26/2/1433H; accepted for publication 5/7/1434H)

Abstract. Smoothing of transition is regorded as one of the artest of rhetoric in the composition of the Quran, in this field the researcher explained the relationship between the smoothing of transition and science of coordination, and he explored that this Kind of rhetoric is one of the features of Quran minitability.

In this research it will be noted the care of Quran interpreters in the smoothing of transition in their commentaries, and the importance of this subject will be appeared by connectiong among the theims of the Quran and each verse and another.

also the researcher exposed to apractical study for Al Noor Surah as due to it's several subjects, so the researcher mentioned the kinds of relations in smoothing of transition and it's impact on the features of rhetoric and minitabillity in this Glorious Surah.